## الأنثى والكتابة والحضارة

فيما أنا لا أزال في قراءة كتاب (المرأة واللغة) للناقد العربي المعروف عبد الله الغذامي، تنتابني تساؤلات ربما وجد كثيرون أنها مضحكة، أو ربما تدل على تخريف في نظر بعضهم إذ لا شيء فيها يدل على منطقيتها وفق المفهومات السائدة. فالغذامي يبدأ أفكاره في هذا الكتاب الهام من المقدمة التي يستهلها بقوله:

(يقول عبد الحميد بن يحيى الكاتب: "خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً" وكأنه بهذا يعلن عن قسمة ثقافية يأخذ فيها الرجل أخطر ما في اللغة وهو "اللفظ" بما أنه التجسد العملي للغة والأساس الذي ينبني عليه الوجود الكتابي والوجود الخطابي لها. فاللفظ فحل "ذكر"، وللمرأة المعنى، لا سيما وأن المعنى خاضع وموجه بواسطة اللفظ وليس للمعنى من وجود أو قيمة إلا تحت مظلة اللفظ. هذه قسمة أولى أفضت إلى قسمة ثانية أخذ فيها الرجل (الكتابة) واحتكرها لنفسه وترك للمرأة (الحكي)، وهذا أدى إلى إحكام السيطرة على الفكر اللغوي والثقافي وعلى التاريخ من خلال كتابة هذا التاريخ بيد من يرى نفسه صانعاً للتاريخ. وهنا تأتي المرأة إلى اللغة بعد أن سيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية، وقرر ما هو حقيقي وما هو مجازي في الخطاب التعبيري، ولم تكن المرأة في هذا التكوين سوى مجاز رمزي أو "مخيال" ذهني يكتبه الرجل حسب دواعيه البيانية

والحياتية).

ثم يوالي الغذامي استنتاجاته وتساؤلاته بخصوص المرأة في علاقتها باللغة وعلاقة اللغة بها، ودخول الأنثى إلى (الكتابة)- والكتابة، حسبما سبق أن قرر، هي مملكة ذكورية -وعن مدى إمكانية الأنثى أن تجعل (من التعبير اللغوي تعبيراً ذا جسد طبيعي حينما يسير على قدمين اثنتين: مؤنثة ومذكرة، وتجعل "الأنوثة" معادلاً إبداعياً يوازي "الفحولة" ولا يقل عنها ولا يقبل بكون الأنوثة فحولة ناقصة).

وبالطبع لسنا هنا في مقام عرض أطروحات الغذامي بهذا الخصوص وإيجاز محتويات فصول الكتاب، فلهذا مكان آخر، غير أن ما يستوقفنا، وما يثير لدي شخصياً تلك الأسئلة التي قلت أنها قد تبدو مضحكة، وغير منطقية بالمعايير السائدة، هو ما يعيد الغذامي التطرق إليه ثانية بخصوص (ذكورية) التاريخ إذ يقول:

(هناك تاريخ قائم كتبه وصنعه الرجل، أو لعله صنعه لأنه هو من تولى كتابة مسيرة الكون فجاء هذا التاريخ (رجلاً) لأنه من إنشاء الرجل. لكننا نستطيع أن نقول أنه مثلما أن التاريخ هو علم ما حدث، فإنه أيضاً يستطيع أن يكون علم ما لم يحدث أو كان حدوثه ممكناً... ولو تيسر للمرأة أن تكتب تاريخ الزمان والأحداث وتولت بنفسها صياغة التاريخ ولم يك ذلك حكراً على الرجل وحده إذاً لكنا قرأنا تاريخاً مختلفاً عن فاعلات ومؤثرات وصانعات للأحداث، وهنا ستكون الأنوثة قيمة إيجابية مثل الفحولة تماماً).

وبقدر ما يبدو كل هذا فانتازياً بدرجة قصوى –فالحضارة بسائر عناصرها وتركيباتها ووسائلها اللغوية وغير اللغوية هي حضارة ذكورية قد لا ينفع مع تعبيراتها إمساك المرأة بالقلم وممارسة الكتابة– فإنه يثير تساؤلات مبنية على تخيلات هي بدورها فانتازية، ومنطوقاتها مستحيلة التحقق. وهي تثار هنا نظراً لما يراه المرء من فظاعة التشويهات الذكورية للحضارة ومن احتمالات التدمير الكارثي للبشرية بسبب من تلك التشويهات.. ألا يصنع الحلم والأمل بنفي تلك الاحتمالات ما لا نعرف من تصورات إنقاذية ربما أخذت شكل الأسئلة المحملة بالروح الانقاذية؟!

يقول أحد كبار علماء النفس وممارسي التحليل النفسي المعاصرين (بيير داكو) في كتاب له عن: (المرأة، دراسة سيكولوجية في الأعماق)، وقوله لا أستطيع الآن إيراده حرفياً، ولكن معناه تام غير منقوص أو مزيد عليه:

(أتصور لو أن المرأة هي التي حكمت مسيرة الحضارة فربما كنا الآن متخلفين تقنياً وعلمياً عما هو راهن بنحو من ألف عام، ولكن نعمة انتفاء الحروب، ونعمة المساواة في العلاقات بين الناس والدول والشعوب، والحكمة التي تحل بها المشكلات العالقة كانت ستبدو متقدمة بآلاف الأعوام عن أفضل ما ندعيه الآن).

وأول ما يخطر على البال هنا هو أن يهتف المرء ولو في قلبه:

–يا إلهي. لماذا لم تكن الأنثى هي التي حكمت مسيرة

الحضارة؟! أفلا يمكن لها أن تبادر إلى ذلك الآن، ما دام الأمـــر الواقع بالسوء الذي هو عليه؟!

حقاً، لماذا لا تبادر إلى ذلك، وتحققه أيضاً.؟!

يقول علم النفس –التحليل النفسي وعلم النفس التحليلي لكـــل من فرويد ويونغ على التوالي، ثم المدارس الناشئة عن كل منهما أو عنهما معاً– بإجماع واضح مؤداه:

–إن الذكورة تتحقق في "الخـــارج" كـــاختراق هـــو تعبيـــر العدوانية، بينما تتحقق الأنوثة في "الداخل" كحكمة هـــي تعبيـــر الحفاظ على الحياة وتجددها الدائم.

الذكورة في الخارج تمارس عدوانيتها وتمشي نحو عدوانيـــة جديدة كي تضمن الشعور باستمرار تحققها، وهي في ذلك تشتط فتدمر، وتخلق –بالقوة– ما يناسب شططها وتدميريتها من أحوال ومفاهيم ومعايير. أما الأنوثة فتمارس حكمة الطبيعـــة الرحميـــة التي تريد أن تهب الحياة، مجددة، ضد التشويه والتدمير.

أهو جدل الأضداد الأساس في تكوين العالم؟!... لعل الإجابة "بنعم" هي الإجابة الصحيحة، ولكن... لماذا كان الأمر هكـــذا؟! ولماذا تولد عن هذا الديالكتيك الحيوي كل مـــا عرفـــه تـــاريخ البشرية من مآسٍ؟! ولماذا لا يكون لهذا الديالكتيك توجه جديـــد تقوم فيه الأنثى بنفي التشويه العدواني الذكوري علـــى الطبيعـــة والبشرية والحضارة معاً، بعد أن قارب هذا التشويه أعلى ذراه، وبإصلاح الوضع البشري إصلاحاً شاملاً قائمـــاً علـــى حكمـــة الأنوثة؟!

لعلها أسئلة تثير الاستخفاف والضحك الهازئين. ففي أســـاس

التشويه الذكوري للوجود البشري تمّ تشويه الأنثى أولاً، وطُبِـعَ على روحها الحلم الدائم بأن تكون ذكراً، وانغرس هذا في قرارة لا شعورها... حتى إن مطالبتها بالمساواة، أو ما يقال عن المساواة والتكافؤ بين الجنسين –على حد تعبيرات المنظمة المعنية في الأمم المتحدة ذاتها– لا تزيد عن كونها قبولاً ذكورياً لها "في وضعِ ذكورة مشوهة"، واللعب معها على قاعدة أن وضعها الذكوري المشوه المغروس فيها لا شعورياً بالقوة هو وضع صحيح، أي أن الأنوثة ذكورة مستحيلة ولكنها يجب أن تكون هكذا لأنها "مصلحة الأنثى" النهائية والحقيقية!! ترى، هل سيلعب الديالكتيك الحيوي المشار إليه قبلاً لعبته وفق قوانينه التي صارت الآن لا تعني أحداً تقريباً؟! ربما. وإن يكن في السؤال أمل يدعو إلى الضحك المر أو إلى السخرية من انتظار الأنثى لإصلاح الحضارة.

كلمة ختامية بشأن كتاب الأستاذ الغذامي:

–قد يكون دخول الأنثى إلى الكتابة بقوة أمراً طيباً أو مقدمة جيدة لمساواة حقيقية في إصلاح اللغة والتاريخ... ولكن، كيف يمكن اعتبار الأمر كذلك ما دامت تدخل من أبواب التشويه الذكوري وبالأدوات الذكورية ذاتها؟!

❑❑